

الدلالة الصوتية في سورة مريم

د. بورحلة فاطمة

جامعة سيدي بلعباس

يتناول هذا البحث سورة مريم، ويحاول أن يستنتج آياتها المباركة، لما في هذه السورة من خصائص في نسق حروفها وألفاظها، وفي تركيب جملها وأساليبها وما يتولد من معنى ودلالة تبوح بها كلمات الله المقدسة . سورة مريم ومحورها والجو الذي نزلت فيه:

لقد انتفضت فكرة البحث عن الدلالة الصوتية للفاصلة القرآنية لتجد في سورة مريم فضاءً واسعاً للبحث عن مثل هذه الدلالة ، فلكل سورة بصمتها الخاصة التي تميزت بها عن غيرها فهي سورة مكّية نزلت بعد سورة "فاطر" وقبل سورة "طه" وقد توسّطت سورتي "الكهف وطه"، عدد آياتها ثمانية وتسعون، وهي السورة التاسعة عشرة في ترتيب السور القرآنية، وغير خفي أن ترتيب السور في المصحف الشريف يخالف ترتيبها نزولاً، وذلك لاقتران النزول بملاسات ووقائع في حياة الناس زمن البعثة وكان جبريل - عليه السلام - ينزل بالآية وموضعها من سورتها على النبي - صلى الله عليه وسلم - فيأمر النبي عليه الصلاة والسلام كتاب الوحي بأن توضع آية كذا في سورة كذا، محدداً موضعها¹.

موضوعها فهو شرح التوحيد ونفي الولد والشريك مع الإلمام بقضية البعث المترتبة على التوحيد².

أمّا مادة السورة فهي القصص، وهي قصّة زكريّا ويحيى، فمریم وعيسى وكذا جانب من قصّة إبراهيم مع أبيه وقومه، وإشارات إلى قصص الأنبياء من إسحاق ويعقوب وموسى وهارون، وإسماعيل وإدريس، وآدم ونوح . و المتأمل في هذه السورة المباركة يلحظ أن جوّها العام يفيض بالرحمة والعطف والرجاء فقد بدأت السورة بالحديث عن الرحمة التي غمرت زكريّا - عليه السلام - ﴿كُرِّمَتْ رَبًّا عَبْدَهُ زَكْرِيَّا﴾ ﴿2﴾ لتليها قصّة مريم مباشرة وميلاد عيسى - عليهما السلام - مروراً بإبراهيم مع والده، وموسى، وإسماعيل، وإدريس - عليهم السلام - مفصلة النعم التي أغدق الله سبحانه وتعالى بها على عباده الصالحين، ومناصرتة إليهم . ثمّ عرضت لرحمة أخرى وعد بها عباد الله المتّقون ﴿إِنَّ الْكَاذِبِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُكْرًا﴾ ﴿96﴾ ولعلّ الغرض الأساس من ذكر هذه الرحمات هي تثبيت لقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعوته قومه الذين قابلوه بالظلم والقسوة والجفاء، وتحمل ما لا يطاق متّبعا في ذلك سنّة أسلافه الأنبياء - عليهم السلام - من خلال الحديث عن المعجزات التي أيّد الله تعالى أنبياءه الذين وردت قصصهم في السورة، فزكريّا قد رزق بالوارث بعد أن بلغ به الكبر وامرأته كانت عاقراً، ومريم حملت بعيسى من غير زوج، والمسيح قد تحدّث في مهدده وهو صبيّ ورزق إبراهيم بالولد بعد اعتزاله لملّة الشّرك ونصره على أعدائه، وتوالى إشارات لقصص بعض الأنبياء ومن اهتدى بهم وعليه فقد أحييت هذه السورة روح الأمل في نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنّ النصر سيأتي، والوعد سيتحقّق، كما تحقّقت المعجزات السابقة لغيره من أنبياء الله.

معلوم أنّ سورة مريم سورة مكّية، وقد اعتمد العلماء على منهجين أساسيين في معرفة المكّي والمدني هما:

1- المنهج السماعي العقلي :

وهو الذي يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي وشاهدوا نزوله، والتابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه³.

2- المنهج القياسي الاجتهادي:

وهو الذي يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنها مكية، وإذا وجد في السورة خصائص المكي قالوا: إنها مكية، وإذا وجد فيها خصائص المدني قالوا: إنها مدنية، وهذا قياس اجتهادي⁴.

ضوابط الأسلوب المكي ومميزاته الموضوعية:⁵

1- كل سورة تفتح بحروف التهجّي: "الم"، "الر"، "حم"... فهي مكية سوى الزهراوين، وهما البقرة وآل عمران، واختلفوا في سورة الرعد حيث يرى بعضهم أنها مدنية لا مكية.

2- كل سورة فيها قصص الأنبياء، والأمم الغابرة فهي مكية سوى سورة البقرة.

3- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

4- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.

5- كل سورة فيها "يا أيها الناس" وليس فيها "يا أيها الذين آمنوا" فهي مكية، إلا سورة الحجّ ففي أواخرها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا﴾ [الحج/77]، ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أنّ هذه الآية مكية كذلك.

6- كل سورة فيها لفظ "كل" فهي مكية، ولم ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاث وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة.

خصائص الأسلوب المكي ومميزاته:⁶

لعلّ أهم ما يميّز الأسلوب المكي قصر الآيات، وإيجازها مع قوة الألفاظ وحرارة التعبير، ووضوح التّجانس الصوتي في الفواصل القرآنية وهي خصائص متعلّقة بالبحث.

ولتأكيد الفرق بين المكي والمدني نقف على ثلاثة آراء اصطلاحية للعلماء في ذلك، كلّ رأي منها يبنى على اعتبار خاص:

الأول: اعتبار زمن النزول:

فالمكي: ما نزل قبل الهجرة، وإن كان في غير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، وإن كان في غير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو في مكة عرف بالمدني كالذي نزل عام الفتح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَلُّوا الْأُمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (58/النساء)، فإنها نزلت في مكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو ما نزل في حجة الوداع كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْحَمُ وَالْخِنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَكِّيَّةُ وَالنَّصِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا عَكَبْتُمْ وَمَا عُجِبَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِاللَّزْلِ وَالْمِصْرِ الْيَوْمَ يَكْفُرُ بِكُمُ الْكُفْرُ مِنْ دُونِكُمْ فَلَا

نَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿3﴾ [المائدة/3].

الثاني: اعتبار مكان النزول:

فالمكي: ما نزل في مكة وما جاورها، كمنن، وعرفات، والحديبية، والمدني: ما نزل في المدينة وما جاورها كأحد، وقباء، وسلع⁷، ويترتب على هذا الرأي أن ما نزل في الأسفار، أو في تبوك، أو في بيت المقدس لا يسمى مكياً ولا مدنياً، كما يترتب عليه أن ما نزل في مكة بعد الهجرة يكون مكياً .

الثالث: اعتبار المخاطب:

فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

ثانياً أقسام الفواصل في سورة مريم :

تنقسم الفواصل في سورة مريم إلى :

1- فواصل متماثلة:

وهي التي تبلغ درجة التماثل في الوزن، وحرف الروي، ومثال ذلك قول المولى تبارك وتعالى : ﴿عُكِّرِ حِمَّةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿2﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ بِهِ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿3﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿4﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْكَيْفَ بَدَّلْنَا وَقَالَ لِلنَّاتِنِ مَالًا وَلَدًا ﴿77﴾ أَصْلَحَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿78﴾ كَلَّا سَكَتَنَّا مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿79﴾ وَنَرْتُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْمًا ﴿80﴾﴾. ويمكن القول أن السورة حافلة بهذا القسم من الفواصل المتماثلة في معظم آياتها المباركة.

2- فواصل متقاربة أو متوازنة :

وهي التي تتفق في الوزن دون حرف الروي، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِ يَوْمِ عِصْيِمْ ﴿37﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الضَّالُّونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿38﴾﴾.

ثالثاً - علاقة الفواصل بسياقها من خلال سورة مريم:

تألف الفواصل القرآنية مع ما يدل عليه الكلام، فهي لا تأتي لمجرد الحلية دون اعتبار المعنى، وليس في فواصل القرآن الكريم فاصلة واحدة جاءت لإكمال الآية إكمالاً معيّنًا، بل لكل فاصلة سرّها البلاغي الجليّ أو الخفيّ، لأنّه لا يمكن استبدال كلمة في القرآن الكريم بكلمة أخرى أيّا كان موقعها في وسط الآيات أو أولها وخواتيمها لأنها لا تقوم مقامها، ولا تؤدي معناها، إضافة إلى أنّها لا تتوافق مع نظامه الصوتي وجماليه اللغوي⁸ ومن خلال الوقوف على آيات السورة يتبيّن أنّ الفاصلة القرآنية تأتي في مكانها المناسب، ولا تخرج عن أحد الأمور التالية:

1/ التمكن:

أن تأتي الفاصلة متمكنة في مكانها ومنه قوله تعالى ﴿عَلِمَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الْكَبِيرِ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿34﴾﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع، وذلك لأنّ ما سبق مشاهد من حمل عيسى وولادته وكلامه ورسالته، ليعقب بالغرض المقصود في أنسب موضع من السياق، بلهجة التقرير، وإيقاع التقرير، ذلك عيسى ابن مريم، ذلك هو في حقيقته، وذلك واقع شأنه⁹.

2/ التصدير:

وهو أن تكون لفظة الفاصلة تقدّمت في الآية، وهو ما يسمّى ردّ العجز على الصدر ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ (94) فالإحصاء هو الحصر والضبط، يعني حصرهم بعلمه وأحاط بهم¹⁰. وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَذَارُ رَبُّهُ نَذَارًا خَفِيًّا﴾ (3) جاءت الفاصلة تصديرا للآية "نادى، نداء". وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَفَتِ الْمَوَالِمُ مِنْ وَرَائِهِ وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ عَابِرًا فَهَبَ لَهُ مِنْ لَدُنْهُ وَلِيًّا﴾ (5) ابتدأت الآية "بالموالي" وجاءت الفاصلة "وليًّا". وقوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (7) جاءت الفاصلة "سميًا" تصديرا للآية "اسمه، سميًّا".

أولاً اختيار الفواصل في سورة مريم:

تعدّ الفواصل في القرآن الكريم من أساليبه البلاغية الجميلة، وتراكيبه الرصينة المبدعة، وهي رؤوس آياته، فالفواصل هي (الكلمات التي تتماثل في أواخر حروفها، أو تتقارب صيغ النطق بها)¹¹. والفاصلة القرآنية عنصر أساس من عناصر اللغة الإيقاعية، تأتي في خواتيم الآيات حاملة تمام المعنى، وتتماثل التوافق الصوتي في آن واحد¹²، هذه الفواصل جزء من الإعجاز في القرآن الكريم، فهي ترجع إلى محسنات الكلام، وهي جانب من فصاحته، تقع في الأسماع فتتأثر بها نفوس السامعين. ومما لا شك فيه أنّ من أهم مقاصد الفواصل القرآنية أن تؤدي دورها في قوة التركيب، وتتمام المعنى ووضوحه، ثم أن تكون شجبة النغم، حلوة الجرس، عذبة الرنين، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها، ليتّم لها الحسن من جميع جهاته.

وإذا كانت الفاصلة القرآنية يتمّ بها النغم في الآية، فإنّه يتمّ بها أيضا معنى الآية، فليس النغم الصوتي هو الذي يحكم هذه الفاصلة أو تلك، إذ لا يصحّ للنغم أن يطغى على المعنى المرتاد في الآية فيعكس هذا المعنى أو يغيّره، لأنّ علوّ الفواصل القرآنية وسموها في البلاغة، كان بسبب أنّها واقعة في موقعها، وأنّ المعاني هي المقصد الأول، والألفاظ بحسن أدائها، ورتّة أنغامها تابعة لذلك.

وللفواصل دلالتها على المقاطع، وتعمل على تحسين الكلام، وترتبط بما قبلها من الكلام ارتباطاً وثيقاً، ولو حذفّت أو بدلت لاختلّ المعنى، لذلك لو تتبّعنا سور القرآن الكريم لوجدنا أنّ منها سور جاءت فواصلها كلّها على حرف واحد، ومن ذلك سورة المنافقين، فإنّ فواصلها جاءت على حرف النون، وكذلك سورة الناس جاءت على حرف السين، وقد يأتي في السورة الواحدة أكثر من فاصلة، مثل سورة مريم فإنّ فواصلها جاءت على حروف مختلفة بحيث سارت الفاصلة من أول السورة إلى غاية قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنِي مِثْرًا أَيْمًا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا كُنتُ حَيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (33) على وتيرة واحدة وهي الألف ثم نجدها في مواضع أخرى تتغيّر ويمكن حصرها فيما يأتي:

1/ جاءت الفاصلة على حرفي النون والميم في قوله تعالى ﴿عَلَّمَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا قَضَىٰ بِأَمْرٍ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الضَّالُّونَ السَّيِّئُونَ يَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (38) وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (39) إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (40) لتنعول من جديدك لألف الإصلاح لما علول القصر من قوله

تعاليم (وَإِذْ كُرِيَ الْكِتَابَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿41﴾ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿42﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿43﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿44﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿45﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْإِهْتِمَاءِ إِبْرَاهِيمَ لَنْ لَمْ تَنْتَهُ لِلرَّحْمَنِ وَأَهْجُرْني مَلِيًّا ﴿46﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿47﴾ وَأَعْتَزَلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿48﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿50﴾ وَادْعُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿51﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الْكُورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿52﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿53﴾ وَادْعُ فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَالِحًا ذَكَاةً وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿54﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿55﴾ وَادْعُ فِي الْكِتَابِ إدريسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿56﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿57﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿58﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿59﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ وَلَا يُكْلَمُونَ شَيْئًا ﴿60﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿61﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿62﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿63﴾ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَبْزُنُ آبِدُنَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ غُلَامٍ وَمَا كَانَ رِبًّا نَسِيًّا ﴿64﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿65﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَأَنَا مَا مِتُّ لَسُوفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿66﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا ﴿67﴾ فَوَرِّدْ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿68﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿69﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَكْبَرُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَى بِهَا صِلًا ﴿70﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ آلُ وَارِدٍ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿71﴾ ثُمَّ لَنَنْجِيَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرَنَّ الضَّالِّينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿72﴾ وَإِنَّا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أُرِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَجِيًّا ﴿73﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ أَحْسَنُ أَثْلًا وَرِثِيًّا ﴿74﴾.

2/ جاءت الفاصلة على حرف الدال الخفيفة تارة والمشددة تارة أخرى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿75﴾ وَيُرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿76﴾ أَفَرَأَيْتَ الْكُفْرَ بآيَاتِنَا وَقَالَ لَوْلِيَيْنَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿77﴾ أَصْلَحَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿78﴾ كَلَّا سَكَتَبْ مَا يَقُولُ وَلِمَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿79﴾ وَثَرُّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿80﴾.

3/ وردت الفاصلة بحرف الزاي من قوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿81﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿82﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَزًّا ﴿83﴾ لتعود من جديد على حرف الدال فتختتم السورة بحرف الزاي.

وعليه يتبين أن فواصل السورة عامة قد بنيت على حرفين اثنين هما ألف الإطلاق والدال، الأمر الذي أعطى للفواصل القرآنية ميزة التوافق الصوتي لأن الإيقاع الصوتي من أبرز سمات نظم القرآن الكريم. وتلك أدلة على ثراء التنوع القرآني بنواح صوتية متنوعة في سائر السورة، فتتوزع الإيقاع الموسيقي والفاصلة بتنوع الجوّ والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فتسير الفاصلة والقافية على نظام واحد، وتليها قصة مريم وعيسى لتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه، إلى أن ينتهي القصص، ويجيء التعقيب لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم فيختلف نظام الفواصل والقوافي، فتطول الفاصلة وتنتهي القافية بحرف الواو والنون المستقر الساكن عند الوقف وإن (ما أبداه الزركشي من ختم كلمة مقطع الفواصل بحروف المد واللين، وإلحاق النون ليس بالضرورة للتمكن من التطريب، ولكنه يشكل ظاهرة بارزة في صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه

الحروف مقترنة بالنون¹³ نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ عَلِمَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الْكَلِيمِ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿34﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وِلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿35﴾ حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرخية المديدة ﴿وَأَعْلَمُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا﴾ ﴿41﴾ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿42﴾ حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغير الإيقاع الموسيقي وجرس القافية ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْزُقْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِكْدًا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿75﴾ وفي موضع الاستتكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿88﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿89﴾ تَكَاثُرَتِ السَّمَوَاتُ يَتَفَضَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَكَّا﴾ ﴿90﴾.

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقي في السورة وفق المعنى والجو، ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو ومن معنى إلى آخر¹⁴. ونخلص إلى أن:

1- لصوت الألف الصدارة في فواصل آيات سورة مريم، ومعلوم أن أصوات اللين عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم في ممر ليس فيه حواجز تعترضه، وهو ما يتناسب مع قوة المعاني التي تشير إليها سورة مريم والتي غلب عليها الدعوة إلى التوحيد، وإثبات البعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين من أتباع النبيين، ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث.

ولعل امتداد النفس عند النطق بالألف، وما يصحبه من امتداد الصوت يتناسب مع أسلوب الدعوة إلى الله، ومجادلة أهل الباطل.

كما أن صفتي الرخاوة والجهر اللتين يمتاز بهما صوت الألف الغالب على فواصل الآيات الكريمة يتناسب مع معاني المناجاة والدعاء التي ابتدأت بها قصة زكريا وهذه السورة الوحيدة التي ابتدأت بالحديث عن القصة القرآنية مباشرة بدون مقدمات¹⁵ لتصور مشهد دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نَجَاءً خَفِيًّا﴾ ﴿3﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿4﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِمَ مِن وِرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ﴿5﴾ يَرْثُنِي وَيَرِثْ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ﴿6﴾.

إنه يناجي ربه بعيدا عن أعين الناس، بعيدا عن أسماعهم، في عزلة يخلص فيها لربه، بلا واسطة حتى ولا حرف نداء (رب)، وقد استوقفت هذه الآية كثيرا من المفسرين من القدامى والمحدثين، محاولين الربط بين قوله تعالى عن دعاء زكريا (نَادَىٰ رَبَّهُ نَجَاءً) ووصف النداء بقوله (خَفِيًّا).

والسؤال المطروح: كيف يمكن أن يكون الدعاء نداءً مع كونه خفياً؟

وقد انقسم المفسرون في توجيه هذا المعنى إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أن زكريا - عليه السلام - لم يكن يجهر بدعائه، بل كان ذلك منه بصوت خافت، فقد (راعى سنة الله في إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص)¹⁶، فالمقصود بالخفاء الخفوت. وخفي صوته لضعفه وهرمه، ودعا في الصلاة لأن الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهُ الْمَلَائِكَةُ هُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْعِمًا مَّصَدَّقًا

بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَبِّحًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿39﴾ [آل عمران/ 39] فكون الإجابة في الصلاة يدل على كون الدّعاء في الصلاة فوجب أن يكون الدّعاء فيها خفياً¹⁷.

الفريق الثاني : لا يجد تعارضاً بين الأمرين، فأخفاء الدّعاء لا ينافي كونه نداءً إذا كان يجهر بدعائه في خلوة عن الناس ومعزل (فلا منافاة بينهما إذا فسر الدّعاء برفع الصوت، لأنّ الخفاء غير الخفوت، ومن رفع صوته في مكان ليس بمرأى ولا مسمع عن الناس فقد أخفاه)¹⁸.

والله الرحيم اللطيف بعباده يسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ الْمُتَعَبُونَ أُسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر/ 60]، وربّما أخفى دعاءه عن الناس لئلا يهزؤوا به، لأنّه طلب الولد بعد كبر سنّه وعقم زوجه، فكان ذلك مخالفاً لمنطق العقل، والطبيعة البشرية، وبذلك قال أكثر المفسرين .

3- إنّ تتابع المقاطع المفتوحة بتوظيف أصوات اللين: (زكريّا، مبین، يؤمنون، عظيم...) في جميع فواصل السّورة، أحدث إيقاعاً هادئاً في آخر الآية بإدخال حروف اللين.

4- تتأوب الإيقاع الموسيقي بين إعلاء الصوت تارة وخفضه تارة أخرى عن طريق ثنائية الياء والألف قد أحدث وقعا عميقاً في النفوس لما أضفاه من جوّ السّلاسة واليسر.

5- التّونين ظاهرة بارزة في لغة القرآن، حيث تمثّل المفتاح الصوتي لكلماتها وتتّوج المقاطع المفتوحة لكثرة وجودها فيها وتتابعها الأمر الذي جعلها تحقّق حركة ذات وقع عميق في النفس البشرية مثلاً وجدناه حاضر في قصص الأنبياء وما زاد دلالة الموقف قوّة هو تلازم التّونين مع الياء التي تكرّرت في معظم فواصل السّورة.

6- النّون هنا تحمل رنيناً موسيقياً متميّزاً تقيّدت به الآيات ممّا جعل لها صدى صوتياً يتناسب مع جوّ الآيات.

7- انتهت فواصل السّورة بأصوات قويّة: بالألف، والنّون، والميم، والزّاي، والدّال.

8- إنّ الأصوات الانفجارية التي وردت في السّورة كالذّال والتي يصل عددها إلى خمسة عشرة فواصل قرآنية، إذ إنّ صفة الشّدّة والانفجار ناتجة عن حبس الهواء حبساً كاملاً بواسطة أعضاء النّطق تتناسب مع المعاني التي تدعو إلى أفراد الخالق عزّ وجلّ في الوحدانيّة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿88﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِهْمًا ﴿89﴾ تَكَاثُرَ السَّمَوَاتِ يَتَغَصَّنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَرًا ﴿90﴾ أَنْ كَانُوا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿91﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿92﴾ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿93﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿95﴾ تكذيب الكفار في نسبة الولد لله وذلك حين يقول المشركون: الملائكة بنات الله، أو عذير ابن الله، أو المسيح ابن الله، فينتفض الكون كلّ له هذه المقولة المنكرة التي تتكرها فطرته، فهذا الكون الذي ننصّوره جماداً لا حسّ له يعرض ذا نفس وحسّ ومشاعر وانفعالات، حيث نرى السّماوات والأرض والجبال تغضب وتتفعل حتّى لتكاد تنفطر وتنشقّ وتنهّد استنكاراً (أَنْ كَانُوا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) ولأنّها تتحدّث عن أمر عظيم ناسب أن تكون الأصوات التي تنتهي بها الفواصل أصوات قويّة، كالذّال الشّديد المجهور المقلقل القويّ، ومن دلالة القلقلّة التّخويف والاضطراب فيكون اختيار هذا الصوت منسجماً تماماً مع الموضوع وإنّ جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجوّ، جوّ الغضب والغيرة والانتفاض (وإنّ ضمير الكون وجوارحه لتنتفض وترتعش وترجف من سماع تلك القولة الثّابتة والمساس بقداسة الذات العلوية

... هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاج¹⁹.

9- إن تنوع الفواصل في هذه السورة فرضته طبيعة الموضوع والجو الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة، ومن أجل الانتقال من قصة مريم والتي تلت قصة زكريا - عليهما السلام - مباشرة، سارت الفواصل على نظام واحد، تحس لمسات الرحمة الندية وديبها اللطيف في الكلمات والعبارات وحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وعمق ﴿رَضِيًا، سَرِيًّا، جَنِيًّا...﴾ ليجيء التعقيب لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم وللفضل في قضية نبوته فيختلف نظام الفواصل وتطول الفاصلة وتنتهي القافية بحرفي الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف ﴿إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (38) وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَىٰ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِيبُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (40).

10- جاءت الفواصل بالنون والميم، وكلاهما مجهور أغن، والغنة مع الجهر تجعل للصوت دويًا، وهذا يتناسب مع الدوي العظيم لمشهد يوم القيامة فويل للكافرين المنحرفين عن الإيمان بوحداية الله تعالى من مشهد يوم عظيم، وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس ! يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي. والنون والميم من أشباه الصوائت ولهما وضوح سمعي قريب من الصوائت ودلالة الوضوح تتناسب مع حقيقة ذلك اليوم الذي لا شك فيه فكل ما على الأرض ومن عليها عائد إلى الله، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد، كما أن للواو والنون فخامة عند النطق سببها العمل المشترك لحجرات الرنين عند الحجرة وتجويف الأنف وفراغ الفم دلالة على مهابة اليوم العظيم أو استهجان للمنكرين.

11- الألف والميم والنون أصوات احتكاكية رخوة توضح بجلاء ما تتركه للقارئ من فرصة ليقبل على طاعة ربه، فيأخذ العظة والعبرة من خلال ذكر قصص الأنبياء، والأمم السابقة، حتى يعتبر بمصير المكذابين وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على الأذى ويطمئن إلى الانتصار.

بدأت قصة إبراهيم - عليه السلام - في سورة مريم من الآية الواحدة والأربعين وانتهت في الآية الخمسين منها، والتي أحاطت بشخصية إبراهيم الرضي الحليم، من خلال الحوار الذي دار بينه وبين أبيه حين حاول دعوته إلى طريق الحق والهداية، فأسلوب إبراهيم اتسم بالزفق واللين والتودد والأدب الجميل، والخلق الحسن وهذا ديدن الأنبياء - عليهم السلام - في دعوتهم²⁰.

﴿وَأَعْرِضْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (42) يَا أَبَتِ إِنِّي فَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (43) في حين اتسم رد أبيه بالعنف والجفاء والوعيد والتهديد لكنه لم يجد من الأدلة والبراهين والحجج ما يقابل به دعوة إبراهيم الذي فاجأه بأدلة عقلية ﴿وَلَكِنْ حُجَّتْنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ (... لا سبيل إلى إنكارها ولهذا كان الرد عنيفا إذ من لا يمتلك الدليل يلجأ إلى أسلوب العناد والمكابرة ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (44)، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (45) تكرر لفظ (يا أبت) في السورة على لسان

نبي الله إبراهيم - عليه السلام - في دعوته أباه، واستماله قلبه، يقول الزمخشري: (حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز... رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن... وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً)²¹. وبهذا فإن إبراهيم - عليه السلام - قد خلق جواً نفسياً وعاطفياً مناسباً يمكنه من طرح أفكاره ومبادئ دعوته بالرغم من نفور الآخرين منها وابتعادهم عنها .

وفي نفس الآيتين جاءت الفاصلة (عصياً/ولياً) مع نمط الطباق، وفي هذا تناغم في الصوت وتناسق في المعنى والدلالة، فالأولى تحذير من عصيان الله، والثانية تحذير من ولاية الشيطان، فطاعة الشيطان وولاية الله لا يجتمعان في قلب رجل مؤمن .

وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم وآلهتهم فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وهنا تتجلى رحمة الله به، وتعويضه عن أبيه وأهله المشركين ذرية صالحة ﴿ فَلَمَّا اخْتَلَفْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ (49) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (50) فكانوا صادقين في دعوتهم، مسموعي الكلمة في قومهم يؤخذ قولهم بالطاعة وبالتبجيل²²، ثم يمضي السياق مع ذرية إبراهيم - عليه السلام - ليستطرد مع إسحاق ابن إبراهيم من سارة، فيذكر موسى وهارون ﴿ وَأَعْلَفْنَا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (51) ﴿ وَنَايَنَاهُ مِنْ جَانِبِ الصُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (52) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (53) ويستغرق القصص حوالي ثلثي السورة، ليستهدف إثبات الوحدةانية والبعث، وظل الرحمة هو الذي يظل السورة كله، وأخيراً يختم السياق بإشارات إلى النبي إدريس - عليه السلام - وكيف أعلى الله قدره ورفع ذكره بعد أن ذكر إسماعيل ووصفه بأنه صادق الوعد، وكان عند ربه مرضياً، والرضا من الرحمة وبعد أن عرضت السورة أولئك الأنبياء، بعد أن (جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام فقد كان سابقاً على نوح)²³، لتوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأنقياء وبين الذين خلفوهم من المشركين، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (58) ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ (59) ﴿ فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق كبير بين السلف والخلف²⁴ .

11- الزأي صوت احتكاكي (رخو) مجهور صفيري، مستقل مرقق، وقد وضح في فواصل الآيات ما أعدّه الله تعالى للطاغين ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (81) ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (82) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ (83) ﴿ إنها صورة عجيبة تحمل دعوة للتفكير بهذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم والتصديق بها (ألم تر) إنه منظر يوحي بالعلاقة الحميمة بين الشياطين والكفار ومصاحبتهم لبعضهم البعض، ويوحي بما يحمله الشياطين للكافرين، ومع تعاملهم معهم، فإصرار الشياطين على الكافرين لأجل عمل المعاصي وتزوينها لهم، يشبه الماء في الرجل الذي يغلي فيسمع له أزيزاً، وهذه الصورة السمعية البصرية الذهنية، أراد الله أن يقربها للمتلقى، كي يفهم حقيقة الشيطان وما يضمه للإنسان، وقد حولها قول الله ﴿ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴾ إلى صورة وكأنها مشاهدة عياناً ومسموعة للمشاهدين وسيطرة الشياطين على

الكافرين وصورتهم يوم القيامة، فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة والنصرة حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصار ينقذونهم من العذاب، وإن الشياطين مسلطون عليهم لإغوائهم و(الأثر والهز والاستفزاز أخوات ومعناها التهييج وشدة الإزعاج أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوسواس والتسويات)²⁵، هذا الصوت المستقل المرقق يتناسب مع معاني الرعدة، والصمت العميق ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾⁹⁸ فبعد الحديث الشديد وترهيب اللطاعين، وترغيب للمتقين وتبشيرهم بما أعدّه الله لهم من نعيم، يختتم المشهد بصوت رقيق. والركز هو الصوت الخفي، والسكون العميق، والصمت الرهيب (وهو مشهد يبدؤك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق وكأنما يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر، يسبح خيالك مع الشخوص التي كانت تدب وتتحرك والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع، ثم إذا الصمت يخيم، والموت يجثم وإذا الجثث والأشلاء والبلى والدمار، لا نامة، لا حس، لا حركة، لا صوت ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ انظر وتلفت ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾⁹⁸ تسمع وأنصت... وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت)²⁶.

إذن فالآيات صريحة في إثبات توحيد الألوهية من خلال توجه الأنبياء إلى الله تعالى بالدعاء والاستعانة فهذا نبي الله زكريا - عليه السلام - يدعو ربه أن يهبه غلاما زكيا، وهذه مريم - عليها السلام - تستعذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك البشر السوي، وهذا إبراهيم - عليه السلام - يستغفر ربه، فالله وحده هو الذي ترفع إليه الأكف وهو وحده المستحق للعبادة.

وتبقى سورة مريم تشكّل السورة الحقيقية التي تردّ على المشركين في إثبات وحدانية الله عز وجل، وتبقى السورة الكاملة التي تحمل في طياتها مظاهر الإعجاز القرآني الخالد من مناحي كثيرة فيظهر على مرآتها العجز البشري للإحاطة ببعض ما ترمي إليه هذه السورة أو غيرها من سور القرآن الكريم. الإحالات:

¹ - من حديث عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنتزل عليه السورة من ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص57.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2299.

- ينظر، السيوطي، الإتقان، ج1، ص323

- ينظر، المصدر نفسه والصفحة نفسها. ⁴

⁵ - ينظر، القطان، مناع بن خليل، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط3، 1421هـ/ 2000م، ص58-59.

- ينظر، القطان، مباحث في علوم القرآن، ص57-58.⁶

- سلع : جبل في المدينة ⁷.

- 8- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: د: محمد رضوان الداية، ود: فايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1428هـ / 2008م، ص184.
- 9- ينظر، سيد قطب، الظلال، ج4، 2300 .
- 10 - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص
- 11- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي، مكانة الفواصل من الإعجاز في القرآن الكريم، مجلة الدارة، السنة 15، العدد3، 1426هـ، المدينة المنورة، ص8.
- 12 - ينظر، المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- أحمد مختار عمر، الصوت اللغوي، ص156.¹³
- 14 - ينظر، سيد قطب، الظلال، ج4، ص2301.
- 15- ينظر، عقيل عكموش عيد، الدلالة النفسية في سورة مريم ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان 3- 4- المجلد6، 2007 .
- 16 - الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص502.
- 17- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص180.
- 18- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ / 1997م، ج14، ص7
- سيد قطب، الظلال، ج 4، ص2320-2321.¹⁹
- ينظر، سيد قطب، الظلال، ج4، ص 2311²⁰
- 21- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص18- 19 .
- ينظر ، سيد قطب، الظلال، ج 4، ص2313.²²
- 23 - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص234 .
- 24 - ينظر ، سيد قطب، الظلال، ج4 ، ص2314.
- الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 524²⁵
- سيد قطب، الظلال، ج4، ص2322²⁶